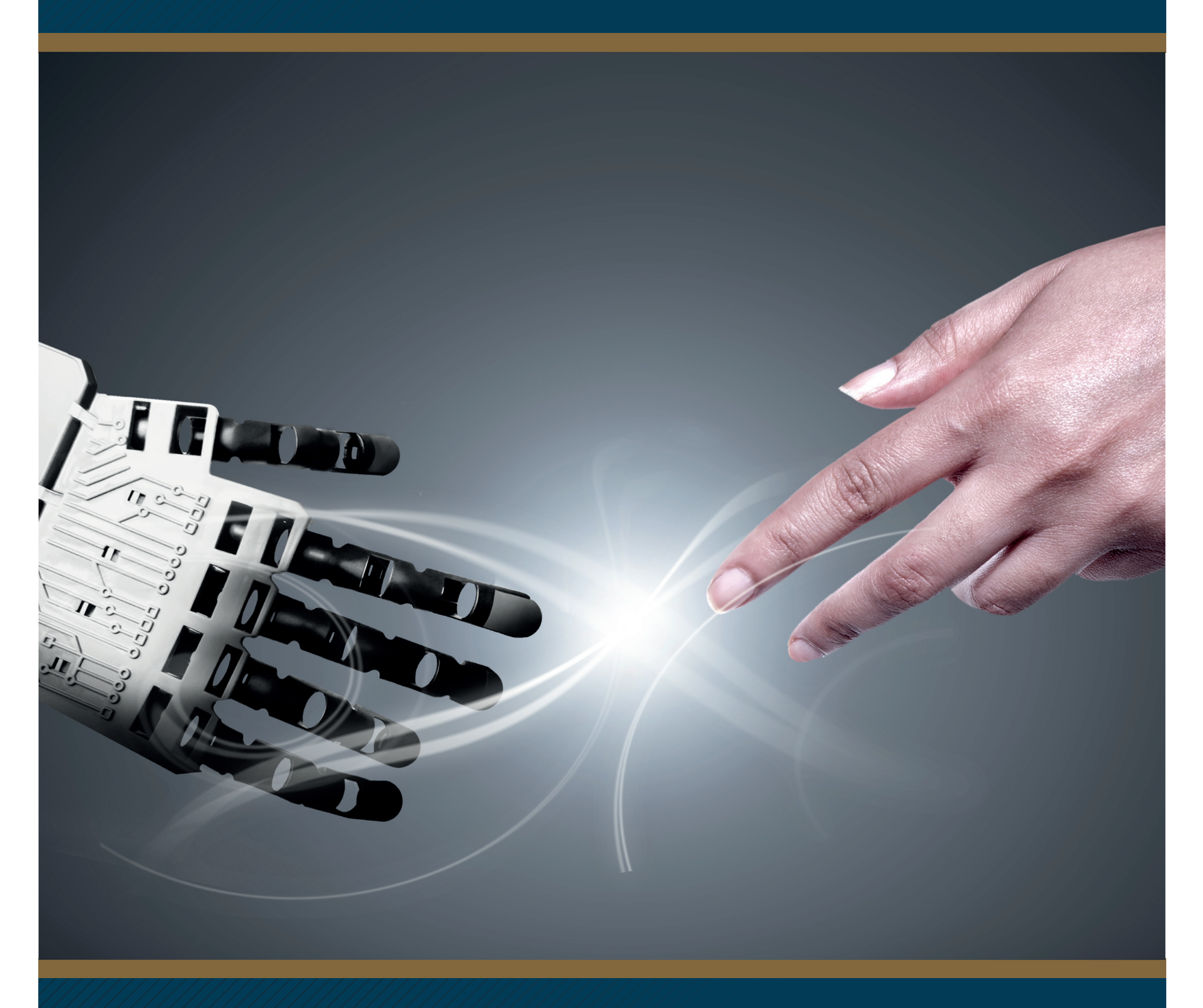
بحث محكم | قسم الفلسفة والعلوم الإنسانية | 10 ماي 2016

البيوإتيقا ورهانات الفلسفة القادمة



محمد جديدي

باحث جزائري

مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث

Mominoun Without Borders

www.mominoun.com

جميع الحقوق محفوظة © 2016

All rights reserved © 2016



الملخص:

تُشكل البيوإتيقا منذ نشأتها في مطلع سبعينات القرن الماضي رهانًا لتجديد الخطاب الفلسفي المعاصر وهي أيضًا عامل حاسم ومحفز على استمرارية الفلسفة ومنحها روحًا جديدة لا سيما بعدما أن أعلنت أصوات كثيرة من داخلها ومن خارجها عن موتها، أي عن موت الفلسفة ضمن سلسلة النهايات التي بدأها نيتشه بموت الإله لتتوالى حلقات النهايات مع الإنسان والمؤلف والمرأة والتاريخ والعقل، وكل ما دُرس في ظل موجة النهاية وامتداداتها، التي أخذت شكل الموضة أكثر منها إعلانًا عن نتيجة تفكير ودرس معمق.

لقد أمكن للبيوإتيقا بما طرحته من قضايا متشعبة تمس بالأساس قدسية الحياة ككل، أن تعيد إلى واجهة البحث الدرس القيمي عمومًا والأخلاقي منه خصوصًا؛ وأن تجعل الإنسان المعاصر واعيًا بما يحدق به من مخاطر ناجمة عن التقدم العلمي والتقني في المجالين البيولوجي والطبي بشكل خاص بل دعته إلى الانخراط في تكريس وعيه بفعالية ونجاعة لأجل صون كرامته وهويته وبيئته من الانزلاقات والسلبيات، التي تفرزها التطبيقات التكنولوجية لعلوم، كانت إلى وقت قريب عامل ثقة للإنسان ووعد له بالرفاه لكنها لم تعد كذلك لما تبيّن أنّ التحكم المزعوم في الشفرة الوراثية وفي تقنيات الإنجاب الاصطناعي وفي الجهاز العصبي والذكاء الاصطناعي هي نفسها بحاجة إلى تحكم حتى يطمئن الإنسان على مصيره من أي انحراف أو استغلال في غير صالحه.

إنّ ما كشفت عنه الأحداث التي حملتها في الغالب وسائل الإعلام جعلت اليوم المجتمع الحديث أنّى كان موقعه يتطلع إلى مستقبل ينعم فيه بالسعادة من دون تشويه بمغريات العلم الغرور والاقتصاد الزائف والسياسات العرجاء، وهو تطلع تظل الفلسفة حارسة له من كل ضيم وانحراف واستغلال. لهذا كله ليست البيوإتيقا من زاوية فلسفية هي مجرد تفكير أكسيولوجي في المشكلات الناجمة عن التطور العلمي والتقني وحسب بل تتعدى ذلك إلى دائرة أوسع وأشمل تخص الحياة حيث وجدت وتمتد لتطال حقوق الإنسان ومنع أشكال التمييز العنصري والعبوديات الجديدة وتحرص في الحفاظ على التنوع البيئي والبيئة عامة. ومن هذا المنظور تشكل البيوإتيقا منفذًا هامًا للمساءلة الفلسفية المتجددة وضمانًا لاستمرار الخطاب الفلسفي.



مدخل:

أن نجزم بأنّ البيوإتيقا باتت اليوم رهانًا للفلسفة القادمة فذلك لأنّها على قدر كبير من الأهمية والاهتمام في دراسات الفلسفة التطبيقية الحالية وأبحاثها. إنّ الفلسفة التي ما فتئت تتعرض لهزات عنيفة تحت تسميات عدة: نهاية الفلسفة، موت الفلسفة، فناء الفلسفة، الفلسفة في المتحف، قد عرفت في كل مرة كيف تجد لنفسها السبيل إلى فرض نفسها وتبرير وجودها. ومن هذا المنظور، فإنّني أتوقع أن تكون البيوإتيقا ممثلة للفلسفة إحدى أبرز المباحث وأكثرها خصوبةً وثراءً في هذا القرن الجديد. لهذا عنونت هذه الورقة بالبيوإتيقا ورهانات الفلسفة القادمة.

حياة الإنسان على الدوام كانت النواة الأولى في تفكيره، فمن تصورها حياة منتظمة، إلى حياة فاضلة سعى الإنسان إلى تطعيمها بالسعادة واللذة والخير والحكمة والعدل حتى تتجسد فيها الحياة الحسنة التي تستحق فعلاً أن يحياها الإنسان. ولما تعذّر على الإنسان تجسيد هذه الحياة في أرض الواقع بحث عنها في مخياله ووجد لها مكانًا في اللا مكان أي في اليوتوبيا التي حلم بها المفكرون والفلاسفة على مر العصور. لكن تصور كتّاب الخيال العلمي للإنسان القادم وإبداعهم في وصف نماذج مستقبلية له لم يكن مجرد خيال، بل إنّ ما اجتهد في طرحه ألدوس هوكسلي في كتابه الشهير أفضل العوالم Le meilleur des mondes في ثلاثينية القرن الماضي (1931 م)، قد لا يبدو، مع ما بلغه الإنسان من تقدم علمي، مجرد خيال.

تمهيد:

وليس من باب المجازفة القول إنّ البيوإتيقا واحدة من رهانات الفلسفة القادمة، حتى وإن بدا هذا القول من قبيل التكهن الذي يرسم لوحة لموضوعات الفلسفة حاليًا ومستقبلاً. إنّ تداول كلمة "بيو" bio[1]* كواقع يتشابك مع فروع أخرى أثمرت بيوتكنولوجيا أو بيوكيمياء أو بيوفيزياء، لم يتوقف عند هذا الحد في التحالف والارتباط بين العلوم بل امتد إلى دوائر أخرى قد لا تبدو أنّها على صلة علمية بالبيولوجيا كبيوسياسة (بيو

*1 ذلك ما يشير إليه كلود لافون في كتاب له شبيه عنوانه بعنوان كتاب جان برنار من البيولوجيا إلى الأخلاق وهو يعرج على مختلف التأليفات بين البادئة حياة bio وألفاظ أخرى عديدة ويقول:

Le préfixe «bio», qui signifie «vie», est devenu véritablement envahissant: biologie, biotechnologies, bio-médecine, biothérapies…ou encore: biosphère, biodiversité, bioénergie, biomatériaux, biodégradable…ou même: biométrie, bioinformatique… enfin et surtout: bioéthique, biopolitique, biopiratage…et, peu usités encore mais qui ne tarderont pas à s'imposer: bionique, bioterrorisme, biosécurité…Tous ces mots font aujourd'hui partie de notre environnement quotidien et concernent directement notre existence la plus concrète.

Claude Lafon, De la Biologie à la Bioéthique, Ellipses Edition Marketing S. A., Paris, 2006, p. 3



بولتيك biopolitique أو بيوسلطة (بيو بوفوار) biopouvoir فضلاً عن بيوإتيقا. لفظ "بيو" bio اليوم من فرط تداوله أضحى مرجعيةً وأصلاً في ثقافة العالم المتقدم.

تنطلق المجازفة بالقول في اعتبار البيوإتيقا رهانًا للفلسفة المقبلة من واقع علمي يلقي بظلاله على حياة الإنسان ويريد أن يتحكم في أدق شؤونها وأشملها ويوجهها كيفما شاء. ففي ضوء الثورات العلمية الثلاث حول المادة، الحياة والعقل (وهي على التوالي الثورات الفيزيائية(الكم)، البيولوجية(الجينوم)، الكومبيوتر(الذكاء) وتحالفاتها المقامة من أجل تقديم المزيد من الاكتشافات والنتائج المرتقبة وفق رزنامة يضعها المنظرّون والباحثون أنفسهم خلال هذا القرن وذلك بتحديد محطات دقيقة تبدأ من بداية الألفية الثالثة إلى غاية 2020 بعدها مرحلة أخرى حتى 2050، وأخيرًا الفترة الممتدة من منتصف هذا القرن إلى نهايته. وأهم ما سيميز هذه المراحل التقدم الذي سيحصل في كشف الخارطة الجينية وحوسبتها والتحكم في الجينوم. وهو ما سيكون له معان عميقة في الطب والبيولوجيا.[2]

قبل الشروع في قراءة نص المداخلة أود أن أذكر بعض الحالات الواقعية التي حصلت هنا وهناك وأفرزت جملة من المعضلات المُعقّدة والمُتنوّعة، هذه الحالات هي:[3]

1- الزوج الأمريكي العقيم واستئجاره لامرأة حاضنة.

2- الشابة جان التي أحبها شاب آخر وقد تعرضت إلى أربع عمليات زرع أعضاء.

3- السيد الإيطالي ويلبي الذي طالب بحقه في الموت.

4- الطفل الأمريكي المصاب بسرطان أثر في منحاه السيكولوجي.

1- استئجار:

واقعة حقيقية حدثت بين امرأتين، واحدة أمريكية ثرية تقطن بإنجلترا الجديدة Nouvelle –Angleterre لكنها عاقر وأخرى فقيرة من إحدى جزر البحر الأبيض المتوسط. تطلب المرأة الأمريكية خدمة من المرأة الفقيرة وذلك بأن تساعدها على إنجاب طفل فتكون هي المرأة الحامل من خلال إخصاب اصطناعي بمني زوج المرأة العاقر وفق عقد تتقاضى بموجبه المرأة الفقيرة مبلغًا من المال بمقتضى عقد بين الطرفين محدد

2 ميتشيو كاكو، رؤى مستقبلية: كيف سيغير العلم حياتنا في القرن الواحد والعشرين، ترجمة، د. سعد الدين خرفان، عالم المعرفة، العدد 270، يونيو 2001م، ص 26

3 Jean Bernard, De la biologie à l'Éthique: Nouveaux Pouvoirs de la Science Nouveaux Devoirs de l'Homme, Paris, Editions Buchet / Chastel, 1990, p.p. 19. 20



بشروط. تجرى عملية الإخصاب وبعد تسعة أشهر يولد طفل لكنه مصاب بتشوهات خلقية. ترفض المرأة الغنية الطفل وتقول لا نريده بينما ترد المرأة الفقيرة بأنّ هناك عقدًا مبرمًا وتطالب بحقها المادي. وبعد اللجوء إلى القضاء وإجراء الخبرة والتحاليل اللازمة يتبين أنّ الطفل ليس ابن الزوج الأمريكي بل إنّه ابن رجل المرأة الفقيرة. هذا الزوج لم يحترم بعض شروط العقد ومنها فترة العفة chasteté التي تسبق أو تلي الإخصاب الاصطناعي. وأنّ التشوّه في النهاية ناتج عن مرض معروف في حوض المتوسط وهو مرض وراثي، جغرافي يسمّى Thalassémie ou thalassanémie. السؤال الذي يطرح على من تقع المسؤولية الأخلاقية والمادية في حالة مأساة إنسانية كهذه؟

2- الجسد:

قصة واقعية يذكرها جان برنار Jean Bernard في كتابه "من البيولوجيا إلى الأخلاق" De la biologie à l'éthique، وهي قصة شاب يدعى بيار Pierre يحب فتاة اسمها جان Jeanne، هذه الأخيرة وفي حادث تفقد ذراعها. تخضع بعد ذلك إلى عملية زرع ذراع (ذراع أجنبي). يبقى بيار يحب جان. بعد ذلك تعاني "جان" من مرض كلوي خطير وتزرع لها كلية (كلية أجنبية) بنجاح يبقى "بيار" يحب "جان". بعدها تتعرض "جان" إلى حروق فتخضع إلى عملية أخرى تزرع لها من خلالها أنسجة جلدية(أنسجة أجنبية). يبقى بيار يحب "جان". كما تجرى لـ "جان" عملية زرع قلب لأنّها بحاجة إلى ذلك جراء مشاكل صحية (قلب أجنبي). ويبقى مع ذلك الحب بين الاثنين. السؤال المطروح: هل حب "بيار" لـ"جان" سيظل كما كان أول مرة بعد أن خضع هذا الجسد إلى كل هذه التعديلات؟ وهل "جان" تظل هي بعد أن أدخلت على جسدها الواحد أعضاء غريبة: ذراع، كلية، جلد، قلب؟ كم من الأعضاء المزروعة يمكن لـ "بيار" تحملها في جسد "جان"؟ وهل حبه للجسد بأعضائه وجانبه الفيزيقي المادي أم هو لشيء آخر؟

3- الحق في الموت:

حالة السيد ويلبي من إيطاليا، التي تابعنا جلنا تقريبًا أطوارها نظرًا للصدى الإعلامي الذي أخذته. فالسيد الإيطالي ويلبي Piergiorgio Welby في العقد السادس ظل طريح الفراش منذ سنة 1997م بفعل شلل Dystrophie musculaire أصابه فأعاقه عن الحركة، وظل لفترة طويلة في "حياته" مرتبطًا بأجهزة تقنية متطورة تضمن له التنفس والتطور. هذا النوع من الحياة لم يعد يرى فيه ويلبي ضرورة فطالب بحقه في الموت لكن العدالة رفضت طلبه وحتى بعد موته رفضت الكنيسة. كان ويلبي يخوض معركة حقيقية بل معارك بدءًا من المرض الذي سلب منه حرية الحركة والتصرف في جسده إلى معركته مع العدالة ومع محيط اجتماعي وديني لا يشاطره بعض أفراده حقه في الموت. توفي ويلبي في ديسمبر 2006 م. بعد أن



ساعده في ذلك الطبيب ماريو ريتشيو Mario Riccio وذلك بمده بأدوية تخفف عنه ألم الموت ثم نزع عنه أنبوب جهاز التنفس الاصطناعي. وقد كانت زوجته التي بقيت إلى جانبه مسرورة بموته وترفض مثله الاحتفال بذكرى زواجهما الذي كان سيصادف يوم 5 جانفي 2007م. السؤال الذي يطرح نفسه إلى من يعود حق التصرف في الجسم والامتناع عن الحياة؟

4- الخوف من المرض:

هو طفل صغير، سنه حوالي إحدى عشرة سنة مصاب بمرض خطير(السرطان) من جهة الحنجرة والأنف والفم، يؤثر المرض في رقبته، ويتطور معه إلى أن يفقده القدرة على الكلام. يصبح تعبير الطفل من خلال الكتابة بحيث يكون تعامله مع الطاقم الطبي المشرف على علاجه من خلال الرسم والكتابة. من بين رسوماته، وضع شخصًا أمامه عربة وبينهما علامة قف المرورية. لإزالة حالة الخوف المعبّر عنها يقترح الطاقم الطبي بعض الاقتراحات منها إزالة الشخص أو العربة أو العلامة، لكن أحد الأطباء يرفض ذلك لأنّ إزالة الشخص معناه موت الطفل، وإزالة إشارة قف تضاعف من خوف الطفل وشعوره بمواجهة الخطر لوحده، أما إزالة العربة فمعناه القضاء على المرض ولكنه حقيقة موجودة. إنّ ما يقترحه هذا الطبيب هو إضافة رسم شخص إلى جانب الشخص الموجود، وهذا في اعتقاده سيعزّز من ثقة الطفل، ويرفع من معنوياته في مواجهة المرض وشعوره بالتعاطف والتضامن المطلوبين لدى كل كائن إنساني في مثل هذه الحالات. والسؤال الذي ينبغي طرحه هو كيف يمكن أن يكون التضامن الإنساني مع المرضى أو كيفية تجسيد هذا التضامن وعدم الاكتفاء بتمظهره العاطفي؟

مثل هذه الحالات وأخرى كثيرة غيرها ليست بالشاذة أو المنفردة أو الهيّنة التي تترك الفيلسوف سلبيًا إزاءها أو غير مكترث بها إنّها حالات تتكرر باستمرار وتمس الكائن الإنساني في وجوده المادي والمعنوي. والفلسفة ليست نظرية مجردة وبمعزل عن واقع الفرد وحياته، حتى وإن أراد لها بعضهم مثل هذا التصور بل هي حياة يحياها الإنسان، يحياها كما هي مجسدة في جسمه أولاً، وهو ما يجعله أمام ما يتضمنه هذا الأمر من كيفية أساسية للزمان وللتغير.[4] وباختصار، الفلسفة نمط عيش وطريقة للتفكير في إدارة الحياة والتحكم في السلوك على مستوى أكبر يضم الفرد والمجتمع والمحيط. ومن هذه الزاوية فإنّ ارتباط الفلسفة بالبيوإتيقا يشير إلى عودة الأخلاق.

4 Richard Shusterman, Vivre la philosophie: Pragmatisme et art de vivre, Traduit de l’anglais (Etats-Unis) par Christian Fournier avec la collaboration de Jean-Pierre Cometti, (Paris, Klincksieck, 2001), p.56



5- عودة الأخلاق

ليست العودة إلى الأخلاق فرض أحكام قيم ومبادئ وقواعد سلوكية نمطية قديمة بقدر ما هي تجديد في التفكير الأخلاقي إزاء ما تفرزه وقائع، ظواهر، أحداث غير مألوفة ونتائج العلم وتطبيقاته التكنولوجية. للتفكير الأخلاقي مستويات ترتقي من العملي السلوكي إلى النظري ثم إلى الميتانظري.

يتميز القرن العشرون بوصفه قرن الأخلاق من حيث أنّ الفلسفة شقت طريقها ليس فيما أراده لها بعض رواد الفلسفة العلمية بتحديد وظيفتها في توضيح مسائل العلم والتقنية، ولكن في مواكبتها للعلم الذي استقل بنفسه في تخصصات شتى عن الفلسفة ومناقشتها المعيارية لما تفرزه نتائج العلم وتطبيقاتها التي غالبًا ما تنحرف إلى منزلقات ومخاطر غير مأمونة العواقب. فالعلم الذي جعله بعضهم أنموذجًا لليقين المعرفي تارة في الرياضيات وأخرى في الفيزياء، ثم تحول إلى البيولوجيا أصبح هو نفسه مشكلة من جهة تطبيقه ولا سيما في بعده الإنساني، وهذا ما تجاهلته الفلسفات العلمية بل دعت إلى استبعاد كل معيارية من الفلسفة.

مع أنّ الاهتمام بالمسألة الأخلاقية أو بمعنى أصح بالأخلاق الحياتية أو الحيوية قد يبدو حديثًا، ولكن ذلك من ناحية البعد الكبير الذي أخذه في بداية القرن العشرين وفي نهايته، وسيظل مركز الاهتمام والصدارة بالنسبة إلى الأبحاث الفلسفية المقبلة. لكن المتمعن في تاريخ الفلسفة سيجد أنّ الأخلاق لم تختف يومًا من طروحات الفلاسفة. ولعلنا نجد في فلسفة ديكارت ما يوجهنا صوب هذا المعنى إذ عندما نقرأ مبادئ الفلسفة لديكارت، ذلك التشبيه الموجود بين الفلسفة والشجرة، أو إن شئنا نوعًا من التصنيف للعلوم تبدو فيه هذه الأخيرة ذات ارتباطات عضوية بمثل ما يكون ذلك في الجسم الطبيعي وما الجذور (أي الميتافيزيقا) والجذع (أي الفيزيقا) والأغصان المتفرعة عنه(أي الفروع الثلاثة الطب، الميكانيكا، الأخلاق) إلا تشبيه حي لهذا الجسم الواحد. بيد أنّ المتأمل في الفروع العلمية الثلاثة، وهي بمثابة الثمار التي تقدمها الشجرة، يتساءل عن تخصيص هذه الفروع بعينها، لماذا الطب والميكانيكا والأخلاق بالتحديد؟ هل لأنّ التحديد يتماشى مع موقف ديكارت الفلسفي لا سيما منه الأنطولوجي والإبستمولوجي؟ هل ثنائية المادة والعقل هي خلفية هذا التحديد؟ ولكن ما علاقة الطب بالأخلاق؟ هل يفيد ذلك ديونطولوجيا كلاسيكية لمهنة الطبيب أو للطب علمًا كان أو فنًّا؟ وهل هي تقليد سار عليه العالم قديمًا منذ قسم أبوقراط؟

عرفت الساحة الفلسفية في بداية القرن العشرين رجوعًا قويًا لمسائل السلوك والأخلاق والقيم. حدث هذا كما هو معروف مع الأمريكيين فيما اصطلح عليه بالأكسيولوجيا مع أوربان W.M. Urban في كتابه "التقويم" Valuation سنة 1909م، الذي قدم فيه أول بحث منظم بمضمون فلسفي لمسألة القيمة، وهي مسألة ذات بعد اقتصادي بالأساس، ثم انتشرت الأكسيولوجيا لتصبح من أهم البحوث الفلسفية في القرن العشرين وساعدت عوامل كثيرة وأحداث عاصفة عايشها الإنسان في القرن الماضي على إعطاء القيمة

الأهمية القصوى. وتمحور تفكير الأخلاقي الجديد حول الرفض والتشكيك في القيم القديمة التي تشبثت بها الإنسانية وفضحتها أقلام المتمردين (نيتشه) وأحداث القرن العشرين، وبدا رفض تأسيس القيم على مرتكزات العقلانية والإنسانية والكونية أمرًا مؤسسًا جدًا، وشرع إنسان القرن العشرين في البحث عن معنى جديد للحياة وعن قيم أخرى تجعله يتعلق بهذه الحياة.((إنّ ما نسميه "أزمة الأخلاق"، اليوم كما كان الأمر في بداية القرن العشرين، يتضمن أزمة في اختراع (إبداع) قيم.))[5] غير أنّ ما عرف عن الأخلاق من طابع نظري إلى عهود قريبة سيتحول بشكل تدريجي إلى الاعتناء بالجوانب التطبيقية، وربما بهذا الفعل تسترد الأخلاق روحها العملية التي جاهد سقراط لإبعادها عن مجال التنظير المحض حينما ربط الأخلاق بالمعرفة وأن لا تكون مجرد علم نظري معياري كغيره من العلوم المعيارية يتأسس على الأخلاق التقويمية، بل إنّها تعتني بجوانب الحياة في شكلها الجزئي والفردي ولا تنمط سلوك الآخرين انطلاقًا من تصورات عامة مجردة.

إنّ الحديث عن عودة الأخلاق لا يعني أنّ الأخلاق بالمعنى العام أو الأخلاق العامة المجردة هي البيوإتيقا أو الأخلاق التطبيقية أو الأخلاق الخاصة، أي هذا الفرع الذي بدأ شيئًا فشيئًا يكتسب استقلاله عن الفلسفة وهو في اعتقادنا استقلال خاص إلى حد ما، يتحدد من خلال الصلات الوطيدة القائمة بين البيولوجيا والفلسفة.[6] أو في شكل الاتحاد الذي اتخذته البيوإتيقا كفرع تداخلت فيه البيولوجيا بثورتها العلمية وتقنياتها الجديدة التي أتاحت للإنسان الكشف عن مزيد من المعطيات المتعلقة بالكائن الحي عمومًا والإنساني منه خصوصًا، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى الإتيقا أو الأخلاق بوصفها تفكيرًا معياريًا بمبادئه وقيمه وضوابطه التي تسعى إلى تأطير حياة الكائن، ليس من منظور التقنية والمعرفة العلمية، لأنّ هذا الأمر اختصت به البيولوجيا والطب ولكن في تحديد أطر أخلاقية (كالحياة الفضلى) وتكريس مبادئ الحقوق(الحق في الحياة) وضوابط سلوك في الحياة (احترام الحياة والكائن الحي).

6- البيوإتيقا: الفكرة والمولد:

لما قلنا بأنّ القرن العشرين هو قرن الأخلاق فذلك لأنّ بدايته فلسفيًا كانت مع الأكسيولوجيا ونهايته كانت مع البيوإتيقا. هذا الاهتمام نفسه الذي أبداه الإنسان بالقيم لا سيما الأخلاقية منها في بداية القرن العشرين سيعرف وثبة أخرى في ختام القرن نفسه ليثمر ما يسمى اليوم البيوإتيقا أو الأخلاق الحياتية أو الحيوية. وكما يقول جان برنار في كتابه من البيولوجيا إلى الأخلاق: تنشأ الأخلاق أو بالأحرى تبعث من جديد. إنّها تأتينا من اليونان عن طريق أمريكي Bioethics. إنّها مجيدة، منتصرة، تزيّن وتملأ عبارات رجال

5 Dominique Lecourt, A quoi sert donc la philosophie: Des sciences de la nature aux sciences politiques, p. 171

6 Jean Bernard, De la biologie à l'Éthique: Nouveaux Pouvoirs de la Science Nouveaux Devoirs de l'Homme, p.p.230.231

الدولة والسياسيين، والفلاسفة والمفكرين، والسوسيولوجيين، والقانونيين ورجالات التشريع، ولغتهم، بمعان مختلفة وغيرهم من المثقفين. تارة باتسّاع وعمومية حيث تغطي مجال الأخلاق التقليدية وتتخطاه، وتارة بأكثر تحديد وضبط في دلالتها ذاتها: علم الأخلاق، كتفكير فلسفي مستوحى من الأخلاق أو في تطبيقها. إنّ أهمية المسائل المرتبطة بتطور البيولوجيا جعلت من الأخلاق والبيواتيقا في اللغة الجارية كلمتين مترادفتين تقريبًا، حتى وإن لقي هذا الانتشار نوعًا من المعارضة.[7] ومن الطبيعي أن يثير هذا التعبير الجديد صعوبات في الاستخدام والدلالة والتداول فعندما استخدمه البروفيسور فان رونسيلار بوتر Van Rensselaer Potter في مؤلفه البيوإتيقا: جسر نحو المستقبل سنة 1971م Bioethics: Bridge to Future وقبله في مقال له البيوإيطيقا، علم البقاء[8] سنة 1970م Bioethics, the Science of Survival. أدمجه بعد ذلك في الكتاب المذكور. أوضح من خلاله تداخل فضاءين دلاليين متمايزين هناك من جهة الأخلاق من اللفظ الإغريقي إيتيكوس ethikos، ومن جهة ثانية الحياة من اللفظ الإغريقي أيضًا bios، هذا التداخل يعرض ويترجم الوعي بالسلطة الكبيرة التي اكتسبتها تدريجيًا العلوم البيوطبية على الجسد البشري. ومن هنا أراد أول مستخدم للبيوإتيقا الإشارة بنظرة إيجابية للتقدم العلمي والتقني مع التأكيد على ضرورة إرفاق ذلك بتفكير أخلاقي يأخذ بعين الاعتبار مسألة القيم. نظر بوتر إلى البيواتيقا بوصفها فرعًا تتداخل فيه التخصصات يوضح الصورة التي تقترب فيها البيوإتيقا مما يسمى أحيانًا ماكروبيوإيطيقا macrobioéthique القريبة من الفلسفة الاجتماعية والسياسية ومن الأخلاق البيئية أو الإيكو-أخلاق (أخلاق البيئة). وقد كتب بوتر عن نظرته هذه ما نصه: البيواتيقا كما أتصورها، تبذل ما في وسعها لانبثاق حكمة، علم أو معرفة المتعلقة بكيفية استعمال العلم لأجل خير المجتمع، على أساس من معرفة واقعية للطبيعة البيولوجية للإنسان وللعالم البيولوجي.[9]

فقد أبدى الفلاسفة منذ ما يقارب ثلاثة عقود من الزمن اهتمامًا كبيرًا بموضوعات الأخلاق التطبيقية، أو بهذا الجزء المعروف بأنّه من الفلسفة التطبيقية فتزايد عدد المختصين بمجال الأخلاق وعليه فقد ظهرت إلى الوجود أخلاقيات خاصة بالبيولوجيا، الطب، التجارة، الهندسة، المعلوماتية، وهي أقرب ما تكون إلى ديونطولوجيا Déontologie أو أخلاق مهنية في المجالات التي برزت فيها. ومع ما حققته من انتشار إلا أنّها عرفت معارضة بعضهم لها، أو إنكار إمكانية تطبيق الأخلاق على مشاكل الحياة اليومية، وعليه فمن الأحسن عدم مباشرة حل معضلات الحياة بعيدًا عن أيّ نظرية أخلاقية[10] أو حسب تعبير هابرماس الابتعاد

7 Jean Bernard, De la biologie à l'Éthique: Nouveaux Pouvoirs de la Science Nouveaux Devoirs de l'Homme, p. 30

8 Pierre-André Taguieff, L'espace de la bioéthique. Esquisse d'une problématisation, in Mots, n°44, septembre, 1995

9 Gilbert Hottois, Qu'est-ce que la bioéthique ? Librairie Philosophique J. Vrin, Paris, 2004, p.11

10 د. حسين علي، العلم والقيم الأخلاقية، ضمن، الفلسفة التطبيقية (الفلسفة لخدمة قضايانا القومية في ظل التحديات المعاصرة)، د. مصطفى النشار(تحرير)، الدار المصرية السعودية للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 2005م.، ص 353



عن أخلقة الحياة الإنسانية la moralisation de la vie وهذا ما دفع ببعض النقاد إلى التشكيك في وجود ما يسمى بالبيوإيطيقا على غرار ما هو موجود في بيو كيمياء أو بيو فيزياء أو بيوتكنولوجيا.[11]

وبعيدًا عن مطارحات المؤيدين والرافضين للبيوإتيقا، وهي من صميم النقاشات الدائرة حول الموضوعات التي تعالجها البيوإتيقا، تفرض هذه الأخيرة نفسها كعنصر أكيد وفعال ضمن الواقع الجديد ولا مجال لتجاوزها أو إغفالها من لدن العلماء والباحثين والسياسيين والاقتصاديين. إذن، ما المقصود بالمصطلح الجديد بيوإتيقا bioéthique؟

7- البيوإتيقا وتحديداتها:

يشير مصطلح بيو إتيقا Bioéthique إلى تأليف بين كلمتين هما "بيو" Bio وتعني الحياة و"إتيقا" éthique وتعني عمومًا الأخلاق، ومن ثم يأخذ هذا التأليف صيغة التوحيد أو الاندماج وعليه فصاعدًا يصبح كل بحث في علوم الكائن الحي قابل لأن يتخذ خاصية أخلاقية فورية.[12] وإذا كانت العلوم بصفة عامة والطبيعية منها بصورة خاصة قد جاءت بالدرجة الأولى لتشبع نهم الإنسان من المعرفة وترفع عنه حجاب الجهل، وتكون أداته الرئيسية على سبيل التقدم إلا أنّ الاكتشافات والتطورات الحاصلة في ميادين العلوم بقدر ما حققت الكثير من المحاسن للإنسان إلا أنّها بالقدر نفسه وربما أكثر من ذلك أثارت مخاوفه، وانطلاقًا من المقولة التي يرددها الباحثون(وفق قانون غابور loi de Gabor) بأنّ ما هو قابل للإنجاز سينجز(من الناحية التقنية Tout ce qui est réalisable sera réalisé، فالعلم لا يعرف حدودًا ولا يخضع لأيّ سلطة أخلاقية أو غيرها عدا تلك التي تخص تقدمه. إلا أنّه ومهما تكن مقاصد(نوايا) العلماء ونسبية حياد طرقهم التقنية، فإنّ البحث في البنية الحميمية للكائن الحي من طرف البيولوجيا الجزيئية سينتهي إلى شر. والتساؤل المطروح إذن هل ينبغي توقيف، منع وحظر أو تقنين بعض البحوث؟[13] وكيف سيكون ذلك ممكنًا سياسيًا، قانونيًا، اقتصاديًا واجتماعيًا إذا لم تكن الأخلاق هي الجزء المهم والمحرك الرئيسي؟ فحتى التقنية التي يحلو للباحثين التأكيد على موضوعيتها وحيادها ليست كذلك تمامًا، وهي مفعمة بتصوراتنا وأفكارنا المعيارية وتنتج في الوقت نفسه تحولاً لهذه التصورات والأفكار المتصلة باختياراتنا الأخلاقية الإنسانية. ومن هنا تبدو العلاقة بين البيولوجيا والطب من جهة والأخلاق من جهة أخرى أنّها تنحصر في صيغتين تفضيان إلى تكريس تبعية الأخلاق، ذلك أنّ منطق التقدم في علمي الحياة والطب يعطي من خلال الاكتشافات الحاصلة السبق في التنظير لمصير الإنسان بشكل خاص في المستقبل وعندها لا يكون للأخلاق إلا الإطار البعدي، أي

---

11 Lucien Sève, Pour une critique de la raison bioéthique, Editions Odile Jacob, Paris, 1994, p.18

12 Dominique Lecourt, A quoi sert donc la philosophie: Des sciences de la nature aux sciences politiques, p. 168

13 Ibidem

أنّه وفي الصيغتين علوم بيولوجية-طبية للأخلاق أو أخلاق حياتية-طبية فإنّ الكلمة النهائية تعود إلى علمي البيولوجيا والطب من أجل احتواء الخطاب الأخلاقي والتقليل من سلطته ومخاطره في تثبيط الدراسات والبحوث البيو-طبية ليس بتركه خارج دائرة العلم، وإنّما بإشراكه في جزء من البحث العلمي وتطبيقاته، ومن ثم استخدامه وتوظيفه في مواجهة خطابات أخرى (الخطاب الديني أو السياسي مثلاً).

لقد كانت الاكتشافات والتطورات العلمية وخاصة الثورتين البيولوجية والعلاجية وراء مخاوف الإنسان وحافزًا له على بعث قيم إنسانية إلى الواجهة، لعل ذلك سيطمئن الإنسان على إنسانية التي أصبحت مهددة ويحصنه من احتمالات تعرضه إلى المساس بكرامته وحريته. وعلى ضوء هذا الواقع العلمي الجديد بدا التفكير البيوإيطيقي موزعًا على قطبين وفق نظرة بيار أندريه تاغييف[14] Pierre-André Taguieff.

من ناحية بيوإيطيقا الذين لا يرفضون فكرة التقدم ويتساءلون فقط عن معايير لتحول ذاتي مرغوب وممكن للنوع البشري وعليه فما يستخلص من هذا عدم إبعاد أو إقصاء كل منظور ناسلّي toute perspective eugénique ou orthogénique

من ناحية ثانية أولئك الذين ينطلقون من مسلمة أنّ حالتنا البيولوجية مقدسة ومحصنة، ومن ثم فهم يفترضون بأنّ هوية الإنسان مهددة، وبالتالي فهم يدعون ليس فحسب إلى مراقبة التطبيقات في علم الحياة، وإنّما إلى منع بعض التقنيات البيوطبية وبعض الأبحاث الجينية نهائيًا.

باختصار، نحن إزاء نمطين من الأخلاق كما يقول السوسيولوجي فرانسوا أندريه إيزنبير François-André Isambert أخلاق واثقة(الثقة) تبحث لها عن صورة مستمدة من واقع تطور البشرية في مقابل ذلك هناك أخلاق متخوفة (التخوّف) منشغلة أساسًا بتحديد (تقليص) المساوئ والأضرار الممكنة للمشروع البيوطبي.[15]

للبيوإتيقا عدة تعريفات ومنها أنّها:

1- البيوإتيقا هي بحث أخلاقي تطبيقي في القضايا المطروحة من طرف التقدم البيو– طبي.

2- البيوإتيقا هي الدراسة المتعددة الاختصاصات لمجموع الشروط التي يستوجبها تسيير مسؤول للحياة الإنسانية (أو الحياة الإنسانية) في إطار التطورات السريعة والمعقدة للمعرفة وللتقنيات البيوطبية.

14 Pierre-André Taguieff, L'espace de la bioéthique. Esquisse d'une problématisation, in Mots, n°44, septembre, 1995, p.14

15 Ibidem



3- البيوإتيقا هي البحث عن حلول للخلافات القيمية (صراع القيم) في عالم التدخلات البيو-طبية.

4- البيوإتيقا هي العلم المعياري للسلوك البشري المقبول في مجال الحياة والموت.

5- البيوإتيقا، تعني دراسة المعايير التي ينبغي أن تسير أفعالنا في ميدان التدخل التقني للإنسان على حياته الخاصة.

6- تعني البيوإتيقا أو تشير إلى جملة المقتضيات والشروط لاحترام الحياة الإنسانية والشخصية وترقيتها ضمن المجال البيولوجي الطبي.[16]

مهما يكن من مضمون متنوع في هذه التعريفات وربما أخرى غيرها فإنّ الأساس الذي يمكن أن نحتفظ به منها أنّها بحث أو دراسة ذات بعد أخلاقي تتجه إلى معالجة المشكلات الناجمة عن التقدم العلمي الحاصل في البيولوجيا والطب ومناقشتها، وخاصة التقنيات الجديدة المستخدمة في مجال الطب وآثارها المتشعبة في حياة الإنسان وبيئته. وعليه فإنّ البيوإتيقا تقدم نفسها ضمن الواقع البيولوجي الطبي الجديد بوصفها مقاربة علمانية، متعددة التخصصات، مستقبلية، شاملة ونسقية. هذه المقاربة في واقع الأمر تعد التقاءً بين التقنية القادرة على تعديل الإنسان أو الطبيعة وحكم الإنسان على هذه التقنية. وهذا الالتقاء أفرز خلافات وجدالات حول الحقوق والواجبات، حول المبادئ، السلطة والاقتصاد ويثير إشكاليات للبيوإتيقا.

8- إشكالات بيوإتيقية:

إنّ البيوإتيقا تثير إشكاليات جمة تتعلق بإطارها ذاته، إذ يتشكّك بعضهم في قيام فرعي أقرب ما يكون إلى وهم تتعلق به الفلسفة حينما تعتبر نفسها حارسة الحكمة وهي التي تسدي النصح أو الأقدر من غيرها من العلوم المُجازفة والمُتهوّرة في البحث والمساس بكرامة الحياة الإنسانية. وعليه فهل توجد فعلاً بيوإتيقا؟

ثم إنّ مما هو محل تساؤل ألا تستغل البيوإتيقا نفسها كحصان طروادة لمحو المخاوف ولتسويغ التجارب على الجنين مثلاً، فينتصر مبدأ النفع العلاجي على مبدأ كرامة الكائن الإنساني، وكل ذلك بغطاء بيوإتيقي يحصل من خلال أساس أخلاقي يمثل وحدة أو حدًّا أدنى لتضارب الآراء.

البيوإتيقا اليوم لم تعد مجرد نظر أخلاقي في مسائل تتعدد من التجريب على الإنسان (جنينًا كان أو بالغًا)، إلى البيئة بمعناها الشامل، بل أضحت واقعًا يمارس سلطته ضمن لجان الأخلاق في المخابر والمهن وفي

16 Guy Durand, La bioéthique, p.p.27.32



برامج السياسيين واللجان الاستشارية(مثال ذلك CIB)[*17] والهيئات التي أدخلت بجلاء البيوإتيقا كعنصر أساسي وفي إطار مؤسساتي وتشريعي، علاوة على الاهتمام والوعي المتزايدين بأهمية البيوإتيقا، وهو ما يبرز في مختلف الملتقيات والندوات والمؤلفات والدوريات التي أفردت لمواضيع البيوإتيقا ومساهماتها بدءًا من نهاية ستينات القرن العشرين إلى اليوم. وقد تم تبني شرح إشكاليات البيوإتيقا ومناقشتها على مستوى المنظمات الدولية والهيئات العالمية، كما حصل مع اليونيسكو في مختلف الملتقيات والندوات التي نظمت منذ ما يناهز الأربعين، وتم أيضًا تبنّي تدريس البيوإتيقا ضمن برامج التعليم لتحسيس مُواطن الغد والأجيال التي سترى الكثير من التجارب محل النقاش والتطبيق قيد التنفيذ والاستغلال بنهاية القرن الحالي.

إنّ ما تفرزه المعالجات والتقنيات المطبقة في علوم الحياة والطب من قضايا شائكة حقيقة قائمة يقرّها أصحاب التخصص والباحثون في المجال المذكور، ويدركون بوعي كبير أنّ هذه القضايا تتجاوز تخصصهم الضيّق، كما أنّ المهتم بالفلسفة سيدرك بجلاء - إن هو تقرّب من مجالات الطب والبيولوجيا- مدى ما في هذه القضايا من بعد فلسفي يخص الإنسان بالدرجة الأولى. ومع هذا فإنّ البيوإتيقا تثير إشكالات عدة ويلفها الغموض بدءًا من إشكالية علاقتها بالفلسفة ذاتها، وبعبارة أخرى هل هي جزء من الفلسفة يسمى الفلسفة التطبيقية أو فلاسفة الأخلاق بشكل عام، أم أنّها تريد في حالة ذيوعها وانتشارها أن تستحوذ على مكانة الفلسفة مستقبلاً فتصبح هي الفلسفة. البيوإتيقا يريد لها بعضهم أن تكون جزءًا من الكل، بمعنى الحديث عن بيوإتيقا محلية ضيّقة إلى حد ما، في الوقت الذي يراها فيه بعضهم الآخر ذات حدود بعيدة ولا تقتصر على علاقة تربط علمي الحياة والطب بالفلسفة (الأخلاق) بل تتصور على أنّها تجمع لتخصصات متنوّعة وفروع عديدة يكون فيها للفلسفة حضور قوّي من خلال الأخلاق إلى جانب اللاهوت والقانون وغير ذلك من فروع العلم المحض أو التطبيقي.

إنّ القضايا المطروحة في الحالات المشار إليها آنفًا وإن نحن وجدناها مثيرة لمعضلات لا تخص الفلسفة لوحدها إذ تشتمل على ميادين شتى تتداخل فيها التخصصات وتتقاطع ومنها: القانون والتشريع، اللاهوت والدين، السياسة والاجتماع، الطب والبيولوجيا غير أنّ نصيب الفلسفة الكبير منها ينصب حول الجانب الأخلاقي (الإتيقي)، أي الجانب الذي ينسب بامتياز إلى الفلاسفة. ذلك أنّ الأخلاق كانت ولا تزال ميدانًا فلسفيًا بامتياز. ومنذ سقراط إلى اليوم مرورًا بأفلاطون، أرسطو، سبينوزا، كانط وديوي، راولس، ليفيناس، هابرماس وآخرين غيرهم شكلت الأخلاق موضوع تفكيرهم الرئيسي. فالفلسفة هي إذن أخلاق نزعة أو ميل vocation وما الأزمات التي مرت بها عبر تاريخها الطويل إلا تساؤلات مشروعة حول صلاحية المعارف

---

*17 CIB أو اللجنة الدولية للبيوإيطيقا هيئة أنشئت سنة 1993م، تتشكل من 36 خبيرًا مستقلاً يؤطرون تطور البحوث في علوم الحياة وتطبيقاتها مع الحرص على احترام مبادئ كرامة الشخصية الإنسانية وحريتها. غرض هذه الهيئة الوحيدة على المستوى الدولي تعميق التفكير الأخلاقي بتناول الرهانات المطروحة من دون المساس بالمواقف، ويبقى لتشريع كل دولة التدخل بحسب القوانين المعمول بها وبحسب خيارات المجتمع.

والقيم التي تتيح حياة أفضل لأكبر عدد ممكن.[18] وليس هناك من ضير إن كانت الفلسفة لا تمتلك موضوعها، ولا عيب في ذلك، فهي بوصفها خطابًا شاملاً يطال جميع نواحي الفكر والواقع تقتات مما تنسجه من علاقات مع باقي فروع العلم والمعرفة والفن وأشكال التعبير الإنساني. لذا فالفلسفة مطالبة بالانخراط في محادثة أخلاقية نقدية تعددية متفتحة تساهم فيها بشجاعة في إيضاح الجدل القائم اليوم حول الكثير من المعضلات ومن أهمها الموت الرحيم.

9- نموذج الموت الرحيم: Euthanasia

يشير مصطلح Euthanasia المشتق من اللغة الإغريقية (Eu ومعناها حسن، مريح وThanatos وتفيد الموت، وهي في مجملها تعني الموت المريح أو الرحيم أو الموت من دون ألم) إلى فعل إثارة الموت جراء تعاطف مع مريض مستعصٍ شفاؤه وذلك بغية وضع حد لآلامه، أو إزاء مولود جديد مشوّه.[19]

مما لا شك فيه أنّ كل فرد منا تشغله حياته، ويريدها أن تكون هادئة، سعيدة، حسنة، متوازنة. لكن كيف يكون تصورنا لنهاية هذه الحياة؟ كيف يتصور الواحد منّا موته وكلنا يعي مدى حالة الضعف والعجز والوهن والشيخوخة التي نكون عليها في تلك المرحلة والتي تلازم الكائن الحي إلى غاية مغادرته الحياة. أليست هذه الحالة من العجز هي إحدى دوافعنا نحو الفلسفة كما يرى ذلك الفيلسوف الرواقي إبيكتيت Épictète؟

الموت ظاهرة حتمية تمس كل كائن حي والإنسان كإنسان، من هذه الزاوية، كل إنسان فانٍ تلك هي المقدمة الكلية التي نقرأها في نموذج القياس الثلاثي في المنطق وتجعل من كل إنسان فانيًا فاقدًا للخلود مقابلاً للآلهة لأنّ الفرق بينهما يكمن بين الحياة الدائمة الأبدية للآلهة بينما تكون للإنسان مؤقتة، زائلة يقطعها الموت.

لو اعتبرنا غاية الحضارة الإنسانية لا سيما في مرحلتها المعاصرة هي التقليل من شرور بني البشر وآلامهم بحيث عملت على تجسيد هذه الغاية بتوظيف كل الطاقات العلمية والتكنولوجية وحتى القانونية والاقتصادية لكنها مع كل الجهود المبذولة والإنجازات المحققة والوعود المنتظر تحقيقها لا تزال معاناة الإنسان مستمرة. لذا نتساءل ما مصير الإنسان إزاء الموت القادم، الموت الحتمي؟ هل ينتظر مداهمته له؟ أم يسعى إليه بإرادته؟ وهل يطلب مساعدة غيره على ذلك إن لم يتمكن هو بنفسه من ذلك؟ لكن ألا يعدّ أمر كهذا انتحارًا (المساعدة على الانتحار أو انتحار بمساعدة) أو قتلاً عمديًا أو غير عمدي. إنّ مسألة الموت الرحيم

18 Robert Misrahi, Qu’est-ce que l’éthique ? L’éthique et le bonheur, Armand Colin/Masson, Paris, 1997, p.8

19 Yvon Kenis, Euthanasie, in, Nouvelle encyclopédie de bioéthique, édité par Gilbert Hottois et Jean-Noël Missa, Editions De Boeck Université, Bruxelles, 1re édition, 2001, p.427



euthanasie معقدة لأنّها من جهة تتعلق بمواقف حرجة يكون من الصعب معها تطبيق القيم والسلوكيات المعتادة للحياة العادية ومن جهة ثانية فإنّ الرهان العاطفي يفرض نفسه، وحيث أنّ الحالة الخاصة تعطل التوجه صوب المبادئ العامة.[20]

هل يكون من حق الإنسان المطالبة بالموت في حالة مرض خطير مستعصٍ لا أمل في الشفاء منه، ومعروف مسبقًا أنّ صاحبه هالك لا محالة، فلماذا المعاناة إذن؟ إذا كانت الحياة بما فيها من منظومات تقنية علمية وتشريعية لا تهدف سوى إلى إزالة المعاناة وتخفيفها إلى أقصى درجاتها وتيسير سبل العيش للإنسان. ألا تعتبر في حالة كهذه راحة الموت أجدر وأفضل من ألم الحياة؟ أليست راحة الموت حياةً جديدةً؟ حياة ليست جديرة بالحياة أين يتدخل فيها الحكم القيمي ويحكم عليها بالنهاية فتصبح على حد تعبير فيتغنشتاين Wittgenstein وحده الموت يعطي معناه للحياة ليس من منطلق تناقض الحياة والموت، وإنّما من منطلق التحدّي الذي يُمثّله للحياة، واعتباره عقبة ينبغي تخطّيها.[21] وأيضًا من منظور أفلاطوني يعتبر الحياة ظاهرة طبيعية، لا يكون الموت معها إلا طورًا في دورة الوجود والفناء، التكوين genesis والانحلال phthora[22] ووفق تأويل غادامير Gadamer لتصور أفلاطون فإنّ حياة الفيلسوف هي طريق يؤدي إلى الموت إذا عد هذا الأخير انفصال النفس عما هو مادي / جسدي أي أنّ حقيقة حياة سقراط تبعث من جديد وتولد حياته من الموت وأرواح الموتى لا تهلك بل تظل مستمرة في الوجود. ثم ألا يعني موت الإنسان في أعين الملحد سوى فقدان إنسان عزيز لم يعد بعد موته موجودًا تمامًا مثلما لم يكن موجودًا قبل ولادته بل إنّ وجوده ينحصر فقط في ذاكرة من عرفوه، فيفقد بذلك كل رمز ومعنى، فأي معنى لهذا الجسد من دون حياة ولم يعد في الضمير المشير إليه أي معنى Il est mort.[23] وكأنّه شيء من أشياء الوجود.

إنّ حياة ما بعد الموت، حياة أو موت ينقضي معها الألم الذي هو منطلق تعاطف وتضامن الإنسان مع الإنسان في ظل فكرة العيش سويًا.

ألا يعتبر السعي إلى الموت حقًّا منصوصًا عليه كبقية حقوق الإنسان الأخرى؟ بل هو أمر حر واعٍ لا يتبعه تأنيب ضمير ولا يقبّحه مجتمع ولا تجرمه عدالة. انطلاقًا من حرية التصرف والتحكم في الجسم وبالتالي التحقيق الذاتي الكامل لأخلاق الفرد.

---

20 Rémi Pérès(coordination), Thèmes d'actualités philosophiques 2003-2004, Paris, Librairie Vuibert, 2003, p.185

21 Richard Shusterman, Vivre la philosophie: Pragmatisme et art de vivre, p.65

22 هانز جورج غادامير، بداية الفلسفة، ترجمة، علي حاكم صالح ود. حسن ناظم، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 2002م، ص 57

23 Jean- Paul Thomas, Misère de la bioéthique: pour une morale contre les apprentis sorciers, Editions Albin M - chel S.A. Paris, 1990, p.212.



وهل سيكون من واجب الطبيب مساعدة المريض وهو الذي من المفترض أن يساعده على الحياة طبقًا لقسم أبقراط Le Serment d'Hippocrate، ولكن ما العمل إذا كان الطبيب أدرى من غيره بحالة المرض المستعصية وهو أقرب من الآخرين شعورًا بمدى معاناة المريض ودرجة الألم الفيزيقي والسيكولوجي الذي يكابده؟ ألا يصبح من واجبه القضاء على المرض ولو بالموت كحل من الحلول، حل نهائي؟

كيف يفسّر الحق والواجب في حالات جزئية قد لا ينطبق عليها المبدأ الأخلاقي العام؟ وكيف تفهم معاني الخير والسعادة والأريحية والغيرية؟ أليس من الإجحاف أن نمارس سلطة القمع الأخلاقي في فرض قوانين المنع والصد والكبت على حالات لا نعايشها بل نكتفي فقط بالتنظير والتشريع لها؟ أليست فكرة حرية التصرف في الذات واستقلاليتها من أساسيات حقوق الإنسان وينبغي أن تظل كذلك، فتحت أي مسوّغ مقدم من طرف فرد أو مؤسسة لإكراه الغير على العيش أو الحياة أطول مما يريد؟ وهذه صعوبة أخرى تضاف إلى الصعوبات المثارة في النقاش حول الموت الرحيم ويلاحظ من هذا الطرف وذاك المطالبة بقيم أخلاقية قوية. من جهة المطالبة باحترام الحياة والكرامة وبالحرية من جهة أخرى.[24] وبين الطرفين يحتدم الصراع من أجل الإقناع وربح معركة التقنين والتطبيق أو المنع.

خلاصة:

إنّ ما يمكن أن نخلص إليه من محاولتنا طرح إشكاليات البيوإتيقا لا تنحصر في ميدان البيولوجيا والطب والتقنيات الحديثة المستخدمة فيهما، ولكنها تطال مجمل التطورات الحاصلة في مختلف العلوم وما تخلفه تطبيقاتها على الإنسان من آثار ليست بالضرورة سلبية يتوجب النظر إليها والتعامل معها من منظور أنثربولوجي يتعلق أولاً وأخيرًا بالإنسان وكينونته. بالإنسان حينما يخلق نفسه، وحينما يقتل نفسه وهو يعلم ذلك كله ويعيه جيدًا بل هو الوحيد من الكائنات الذي يعي ذلك الأمر.

لقد وضعت التطورات الحاصلة في البيوتكنولوجيا والهندسة الوراثية والطب أمام الباحثين وأيضًا المشرّعين ورجال القانون والمسؤولين وعموم المواطنين أسئلةً جديدةً خطيرةً ومعقّدةً: إلى أي مدى يمكن أن يمتد تحكم وسيطرة الإنسان على الإنسان؟ وهل يتوجب فعل كل ما هو ممكن تقنيًا بخصوص الإنجاب الاصطناعي واستعمال الجسم الإنساني؟ وهل ينبغي حماية الإنسان كما نعرفه؟[25] (26*)

---

24 Rémi Pérès(coordination), Thèmes d'actualités philosophiques 2003-2004, Paris, Librairie Vuibert, 2003, p.p186.187.

25 Laurent Mayet, Le boum éthique, in, Sciences et Avenir (Hors-Série), N° 130, Mars/ Avril, 2002, p.3.

26*هذه عينة من أسئلة خصصت لها مجلة علمية Sciences et Avenir عددًا خاصًا لمناقشتها وهو أمر يبعث على الاستغراب أن تناقش دورية علمية مسألة أخلاقية في غاية الأهمية وهو ما اندهش له كاتب مقال الافتتاحية Laurent Mayet بعنوان Le boum éthique.



إنّ ما تثيره المعالجة البيولوجية والتقنيات الطبية وإن تعلق أساسًا بمسائل ثنائية الحياة والموت إلا أنّه يتعدى هذه الثنائية ليطرق مسائل ذات أهمية للكائن البشري ومسائل نزاع الكرامة والحرية، الحرية والمساواة، المساواة والحق في الحياة ومثل هذه المسائل في البيوإيطيقا كثيرة ولا تتوقف عن البروز والتفاقم كلما ازداد التطور العلمي والتقني.



قائمة بيبليوغرافية:

1. Claude Lafon, De la Biologie à la Bioéthique, Ellipses Edition Marketing S. A., Paris, 2006.

2. ميشيو كاكو، رؤى مستقبلية: كيف سيغير العلم حياتنا في القرن الواحد والعشرين، ترجمة، د. سعد الدين خرفان، عالم المعرفة، العدد 270، يونيو 2001م.

3. Jean Bernard, De la biologie à l'Éthique: Nouveaux Pouvoirs de la Science Nouveaux Devoirs de l'Homme, Paris, Editions Buchet / Chastel, 1990.

4. Richard Shusterman, Vivre la philosophie: Pragmatisme et art de vivre, Traduit de l'anglais (Etats-Unis) par Christian Fournier avec la collaboration de Jean-Pierre Cometti, (Paris, Klincksieck, 2001.

5. Dominique Lecourt, A quoi sert donc la philosophie: Des sciences de la nature aux sciences politiques.

6. Pierre-André Taguieff, L'espace de la bioéthique. Esquisse d'une problématisation, in Mots, n°44, septembre, 1995.

7. Gilbert Hottois, Qu'est-ce que la bioéthique ? Librairie Philosophique J. Vrin, Paris, 2004.

8. د. حسين علي، العلم والقيم الأخلاقية، ضمن، الفلسفة التطبيقية (الفلسفة خدمة قضايانا القومية في ظل التحديات المعاصرة)، د. مصطفى النشار(تحرير)، الدار المصرية السعودية للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 2005 م.

9. Lucien Sève, Pour une critique de la raison bioéthique, Editions Odile Jacob, Paris, 1994.

10. Pierre-André Taguieff, L'espace de la bioéthique. Esquisse d'une problématisation, in Mots, n°44, septembre, 1995.

11. Guy Durand, la bioéthique: nature, principes, enjeux, Les Editions du Cerf, 1989

12. Robert Misrahi, Qu'est-ce que l'éthique ? L'éthique et le bonheur, Armand Colin/Masson, Paris, 1997.

13. Yvon Kenis, Euthanasie, in, Nouvelle encyclopédie de bioéthique, édité par Gilbert Hottois et Jean-Noël Missa, Editions De Boeck Université, Bruxelles, 1re édition, 2001.

14. Rémi Pérès (coordination), Thèmes d'actualités philosophiques 2003-2004, Paris, Librairie Vuibert, 2003.

15. هانز جورج غادامير، بداية الفلسفة، ترجمة، علي حاكم صالح ود. حسن ناظم، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 2002م.

16. Jean- Paul Thomas, Misère de la bioéthique: pour une morale contre les apprentis sorciers, Editions Albin Michel S.A. Paris, 1990.

17. Laurent Mayet, Le boum éthique, in, Sciences et Avenir (Hors-Série), N° 130, Mars/ Avril, 2002.

MominounWithoutBorders

Mominoun

@ Mominoun_sm

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

الرباط – أكدال. المملكة المغربية

ص ب : 10569

الهاتف : 54 99 77 537 212+

الفاكس : 27 88 77 537 212+

info@mominoun.com

www.mominoun.com

All rights reserved © 2016

جميع الحقوق محفوظة © 2016